المشكاة للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Al-Mishkat of Humanities & Social Sciences
ISSN 2311-0538 E-ISSN 2789-6579
مجلة علمية عالمية محكمة
المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ذو القعدة1447هـ/ نيسان 2026م
Volume 13, No. 1, December 2026
تاريخ استلام البحث: 2025/10/6م تاريخ قبول البحث: 2026/1/6م تاريخ نشر البحث: 2026/4/30م

رمز الخريف وسقوط الحضارة في رواية خريف أشبيلية للروائي وليد سيف

د. مؤيد أحمد الشرعة*

الملخص

الأهداف: سعت هذه الدراسة للوقوف على الرمز (الخريف) في رواية خريف إشبيلية[1] للروائي وليد سيف، بوصفه أداةً فنيةً ودلاليةً للكشف عن ثنائية الصعود والسقوط في الحضارة الأندلسية، واتخاذها نموذجًا تاريخيًا دالًا على حتمية التدهور حين يسود التشرذم والانقسام، بالإضافة إلى التوقف عند حضور شخصية المعتمد بن عباد، التي مثلت تحول الأندلس من المجد إلى الانكسار؛ لبيان الكيفية التي أسقط فيها الروائي الرمز الموسمي للخريف على مصائر الأفراد والجماعات.

الأهمية: أما أهمية هذه الدراسة فهي تتثمل في محاولتها الكشف عن جمالية حضور دلالة الخريف في السرد الروائي والعتبات النصيّة، فضلا عن جدتها وحداثتها، إذ لم يسبق لهذه الرواية أن درست من قبل.

المنهجية: وقد اعتمد الباحث منهجًا تحليليًا يستند على ممكنات المنهج السيميائي في دراسة العتبات النصية، والبنية الرمزية للعنوان والغلاف، وما تثيره من إيحاءات دلالية مرتبطة بمفهوم الأفول الحضاري.

النتائج: وخلصت هذه الدراسة إلى أن وليد سيف قدّم من خلال عمله الروائي أنموذجًا سرديًا يمزج بين المرجعية التاريخية والتخييل الفني؛ لتجسيد لحظة سقوط حضاري تتجاوز بعدها التاريخي لتغدو علامة إنسانية متجددة.

الكلمات الدّالة: الخريف، إشبيلية، العتبات النصية، المعتمد، الشخصية، السرد

---

* محاضر متفرغ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة العلوم الإسلامية العالمية.
Moaedalshraa@aabu.edu.jo

1.المقدمة:

يُعدّ الرمز من أهم الأدوات الفنية التي يلجأ إليها الروائي للتعبير عن رؤيته للعالم، إذ يمنح النص أبعادًا دلالية عميقة تتجاوز ظاهر الحكاية إلى فضاءات التأويل، لما يحمله الرمز من كثافة في المعاني، وتضمين يستفزّ المتلقي للتفكير، ومحاولة الحفر عميقًا في الرمز، لمعرفة كيفية توظيفه والدلالة المرادة وراء هذا التوظيف.

ولعل من أبرز الرموز التي وظّفها الروائي وليد سيف في روايته خريف إشبيلية، هو رمز الخريف بما يحمله من دلالات تشمل الانطفاء والذبول والأفول بعد اكتمال دورة الازدهار، فقد اختار الكاتب هذا الرمز ليعبّر عن التحولات التاريخية التي عرفتها إشبيلية في عهد بني عباد، بوصفها أنموذجًا لصعود الحضارات، وسقوطها في ظل التمزق السياسي والتنازع الداخلي.

ولعل استعمال السارد لدلالة السقوط التي تضمنتها لفظة الخريف لم تكن استعمالا جديدًا، إذ إنّ هذا الاستعمال قد كثر في الأدب العربي قديمه وحديثه، فقد عبر غير قليلٍ من الشعراء عن خريف عواطفهم وانحسارها في شعرهم، وأُستعملت هذه اللفظة للدلالة على الكآبة والحزن اللامتناهي، أو التجدد بعد الأفول، أو للإنكسار والسقوط، كما نلاحظ في هذه الرواية، التي تعمق فيها مفهوم السقوط وانهيار الحضارة في دلالة لفظة الخريف، منذ العتبة الأولى للنص الروائي مرورًا في بناء الأحداث، وتكوين الشخصيات انتهاءً بالحل.

وانطلق البحث من دراسة العتبات النصية بوصفها المدخل الأول لفهم الرؤية السردية، إذ كشفت عن وعي الروائي بالتاريخ من خلال بنية رمزية مكثفة تستحضر ثنائية المجد والانهيار، كما تناول البحث رمزية الخريف في علاقتها بمدينة إشبيلية التي تحولت من مركز حضاري مزدهر إلى فضاء للسقوط والانكسار، ثم توسع في تحليل رمزية الخريف في شخصية المعتمد بن عباد الذي انتقل من ذروة الملك والسلطان إلى أسر المنفى وانكسار الذات.

وبذلك يسعى هذا البحث إلى الكشف عن كيفية تداخل المرجعية التاريخية مع الرمز الفني في الرواية؛ لإبراز دلالات الخريف بوصفه علامة على سقوط حضاري متكرر لا يقتصر على إشبيلية فحسب، بل يظل حاضرًا في كل تجربة إنسانية تنهض ثم تأفل بفعل التشرذم والصراع الداخلي.

2. الدراسات السابقة:

لم يقف الباحث -في حدود علمه -على دراسات سابقة تناولت هذه الرواية بوصفها عملا فنيًا حديث النشر، أما الدراسات التي تناولت موضوع الرمز والخريف، فهي كثيرة وسأذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر:

ثامري، علي (2025): تجليات الفصول ومتعلقاتها في شعر محمود درويش، حولية مجبة جامعة قالمة، الجزائر، مج 19، ع1.

محمد، هندة (2024): الخريف ودلالاته في الشعر العربي، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، ع 421.

قطوس، بسام(2018): مقاربة العتبات النصية في نماذج من المنجز الروائي لإبراهيم نصر الله، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، جامعة اليرموك، إربد، مج (15)، ع(1).

العيد، سلامي وشهاب بسرة (2021): عتبة العنوان الرئيسي في روايات الطاهر وطار دراسة أسلوبية، مجلة العلوم الإنسانية، مخبر اللغة وفن التواصل، الجزائر، مج (21)، ع(1).

3.مشكلة الدراسة.

تتمثل مشكلة هذه الدراسة في الكشف عن الدلالات الرمزية التي يحملها مفهوم **الخريف** في رواية ***خريف إشبيلية*** لوليد سيف، وذلك من خلال استجلاء أبعاده المرتبطة بسقوط الحضارة الأندلسية، وتجلياته في **مدينة إشبيلية** التي مثلت مركزًا حضاريًا بارزًا، ثم تحولت إلى فضاء للانهيار، فضلًا عن إسقاطاته على **شخصية المعتمد بن عباد** الذي انتقل من أوج السلطة إلى مأساة السقوط والنفي، وتكمن إشكالية البحث في التساؤل عن:

- كيف وظّف الروائي رمز الخريف بوصفه أداة فنية للتعبير عن ثنائية الصعود والانحطاط؟
- ما دور **العتبات النصية** في تمهيد القارئ لقراءة هذا الرمز؟
- إلى أي مدى نجح السرد الروائي في المواءمة بين المرجعية التاريخية والتخييل الفني لإبراز دلالات السقوط الحضاري؟

4.أسئلة الدراسة:

انطلقت هذه الدراسة من أسئلة تفرضها طبيعة البحث، هي:

1-هل يمثل رمز الخريف أداة فنية ودلالية أساسية لفهم ثنائية الصعود والسقوط في الحضارة الأندلسية؟

2-هل استطاع الروائي التعبير عن دلالة الخريف وعكسها على العتبات النصية؟

3-هل تعد مدينة إشبيلية وشخصية المعتمد بن عباد شكّلا أنموذجًا لتجربة سقوط الحضارة؟

4-هل نجح وليد سيف في مزج المرجعية التاريخية بالتخييل الفني؟

5.منهجية الدراسة:

تقوم الدراسة على الاستفادة من معطيات وآليات تحليل الخطاب السردي المعاصر، وذلك عبر تحليل البنية السردية والرمزية؛ للكشف عن كيفية توظيف رمز الخريف ودلالاته في الرواية، كما استندت إلى المنهج السيميائي في التعامل مع العتبات النصية، انطلاقًا من أطروحات جيرار جينيت حول المناص والوظائف التي تؤديها العتبات في توجيه القارئ وتأطير العمل الأدبي، بالإضافة إلى الجمع بين التحليل التاريخي والقراءة الجمالية للنص، فقد سعى البحث إلى تتبع العلاقة بين المرجع التاريخي والتخييل الروائي، وإبراز كيفيات إسقاط رمزية الخريف على كل من مدينة إشبيلية باعتبارها فضاءً حضاريًا، وشخصية المعتمد بوصفها نموذجًا للسلطة التي بلغت ذروة المجد ثم انتهت إلى الخريف والانكسار.

6.فرضيات الدراسة:

1.إنّ دلالة الخريف في الرواية لا ترد بوصفها إطارًا زمانيًا فحسب، بل تُستثمر بوصفها علامة رمزية تحمل أبعادًا نفسية ووجودية تسهم في تعميق البنية الدلالية للنص السردي.

2.إنّ حضور الخريف في السرد الروائي يؤدي دورًا جماليًا ووظيفيًا في تشكيل الرؤية السردية، من خلال ما يتيحه من إيحاءات مرتبطة بالأفول والتحول والانتظار.

3.إنّ العتبات النصيّة (العنوان، الغلاف، الإهداء، الاستهلال) تشكّل فضاءً دلاليًا مكمّلًا للنص السردي، وتسهم في ترسيخ دلالة الخريف قبل الدخول في متن الرواية.

4.إنّ توظيف دلالة الخريف ينعكس على بناء الشخصيات ومساراتها النفسية، بما يجعلها مرآة للتحولات الداخلية والصراعات الوجودية التي تعيشها

5.إنّ جمالية دلالة الخريف تتجلّى عبر تقنيات سردية ولغوية خاصة، مثل الوصف، والاستعارة، والإيقاع الزمني، مما يمنح النص بعدًا شعريًا ودلاليًا متماسكًا.

المبحث الأول: رمز الخريف وعلاقته بالعتبات النّصية:

تعد العتبات النصية أو ما اصطلح عليه بمسمى (المناص) أو (النص المحيط) أو (النصوص الموازية) الذي ظهر عند جيرار جينيت من أكثر المصطلحات النقدية تداولا واهتماما في الساحة النقدية، إذ ظهر مصطلح العتبات ضمن مشروعٍ نقديٍ واسع عند جينيت هو المتعاليات النصية التي ربطها مع الشعرية، ليخرج بمصطلح جديد هو المناص (PARATEXETE)، ليدلّ هذا المصطلح على جميع ما يجعل النص كتابا يقترح نفسه للقراء، وذلك من خلال العتبة التي تسمح بدخول النص والخروج منه، فالمناص يتضمن النصوص الممهدة للعمل الأدبي من عنوان، وعنوانٍ فرعي،

وغلافٍ، وعنواناتٍ داخلية، ومقدمة، وخاتمة وغيرها من الملحقات التي تؤطر النص وتمهد له، فهي نصوص لا تنفصل عن أي عملٍ أدبي، وليست جامدة بلا معنى، إنما تؤدي وظيفة جمالية وفنية تخدم العمل الأدبي [1].

أما عن أنواع العتبات التي حددها جيرار جينيت فهي نوعان، الأول عتباتٌ افتتاحية، وتشمل ما كتب حول الرواية من مقالات وغيرها، وعتبات المؤلف وهي التي تشمل كل العتبات التي من نتاج المؤلف من عنوانٍ، وصفحة الغلاف وعنوانات داخلية وإهداء وغيرها، وفي هذه الدراسة سنكتفي بالعنوان وصفحة الغلاف؛ لخلو الرواية من المقدمات والإهداءات والعنواناتٍ داخلية، والتصدير وغيرها من عتبات رصدها جينيت [2].

وبناءً على ما سبق إنّ أول ما نتناوله في الدراسة والتحليل هو العنوان، الذي يمثل أولى العتبات النّصية التي أُشير إليها، "فهو يعد علامة رمزية لغوية دالة يمارس فعل الإغراء ويجذبه لتلقي العمل الكتابي، فهو مثل النص الإبداعي له بنيتان سطحية وعميقة" [3]، ويعرف أيضًا "بأنه مجموع الدلائل اللسانية التي يمكنها أن تثبت في بداية النص من أجل تعيينه، والإشارة إلى مضمونه الإجمالي، ومن أجل جذب الجمهور المقصود " [4].

وتنبعث أهمية العنوان من كونه أوّل ما يصطدم به القارئ في نظره وتأملاته في النص الأدبي، فهو يمثل الجسر الذي يعبر به إلى عالم النص، بالإضافة إلى كونه ينهض بالنص الروائي إلى مستوى سيمائي متعدد الإيحاءات والإحالات، فهو هوية النص وسمته المميزة[5]، ولذلك نجد أنّ جيرار جينيت يؤكد على ضرورة إقامة علاقة رابطة بين العنوان والنص، ومحاولة استكشاف وظائف العنوان –التي حددها- وهي الوصفية، والدلالية الضمنيّة، والإغرائية، فضلا عن الوظيفة التعيينية[6].

وفي دراستنا للعنوان المتناول (خريف أشبيلية الطوائف) نجده يفتح أمامنا آفاقًا للدراسة من جانبين هما الجانب الشّكلي الذي يتضمن عدة نواحٍ مثل موقعه في صفحة الغلاف وطريقة صياغته والخط المستعمل، أما الجانب الثاني هو الجانب الدلالي وعلاقته بمتن النص الروائي.

ففي الجانب الشكلي يُلاحظ أنّه جاء أعلى صفحة الغلاف مباشرة تحت اسم المؤلف، ولم يكن العنوان مكتوبا كله على سطرٍ واحد، إذ نجده يتكون من سطرين الأول يتضمن عبارة ((خريف إشبيلية))، أما السطر الثاني يتضمن كلمة ((الطوائف))، وأسفل هذه الكلمة وُضع عنوان ثانوي يتضمن كلمة (رواية) وذلك للدلالة على جنس العمل الأدبي المكتوب.

والملاحظ أنّ العنوان كُتب بالخط المغربي المشهور في بلاد المغرب، وهو بذلك يضفي على العنوان الهيمنة المكانية، فللمكان سطوته وحضوره وتأثيره المباشر، سواء أكان تأثيرًا مباشرًا بذكره صراحةً (إشبيلية) أو بشكل غير مباشر بإضفاء الطابع الثقافي على رسم العنوان بالخط أو بغير ذلك.

ولعل صياغة العنوان وترتيبه بهذه الطريقة يمثل علامةً سيميائية، وننطلق من قولنا هذا بدراسة تركيب الجملة، فالتركيب خريف إشبيلية تركيبٌ إضافي مكون من مبتدأ ومضاف إليه مجرور، أما لفظة الطوائف التي جيء بها منفردةً تحت عبارة خريف إشبيلية فقد تعرب بدلا أو عطف بيان، أو نؤول المبتدأ المحذوف بلفظة خريف أو بضمير الشأن هو، فيصبح العنوان خريف إشبيلية خريف الطوائف، أو خريف إشبيلية هو خريف الطوائف.

ولعل هذا البناء التركيبي للعنوان بما في ذلك الأوجه النحوية المتعددة له، يوحي بدلالة واحدة هي أنّ الروائي يعبّر عن فلسفته تجاه سقوط الدّول وهو التفرق على ملل وطوائف، فسقوط أشبيلية هو سقوطٌ لكل الطوائف التي تأسست على شاكلتها، ووظف لفظة خريف لتوافقها مع السياق المراد في منظوريها المعجمي والدلالي فلفظة خريف من منظور معجمي: "أحد فصول السنة، وهي ثلاثة أشهر من آخر القيظ وأوّل الشّتاء، وسمي خريفًا لأنه تُخْرفُ فيه الثّمار أي تُجتنى" [7].

أما من منظور دلالي جاءت لفظة خريف المنتمية للحقل الدلالي الدال على الموت للدلالة على الأفول والسقوط، فهي قياسا على معناها المعجمي الدّال على نهاية الشيء وذبوله، فإنّ المعنى الدلالي لم يخرج في سياقه عن منطلقه المعجمي، فالروائي يلوح بأنّ هذه الرّواية جاءت لتعبّر عن فترة سقوط إشبيلية تلك المملكة العربية التي ولدت من رحم التفكك والضعف وانهيار الدّولة الأمويّة في الأندلس، ويتوسع الروائي بعنوانه فلا يقف عند حد إشبيلية فحسب، بل نجده يتعداها بذكره لفظة الطوائف، فكأنه يقول سقوط أشبيلية هو سقوط الطوائف، فأينما وجد التفكك وجد السقوط والموت الذي عبر عنه بلفظة الخريف.

والناظر إلى هذا العنوان يجده يشتبك مع الأيقونات المتعددة المرسومة على صفحة الغلاف الأمامية، إذ يُلاحظ وجود خلفية تتضمن تمثال أسدٍ ورواق قصر المعتمد بن العبّاد في إشبيلية، يتقدمها نجمةٌ ثمانية بداخلها شعار دولة بني الأحمر آخر ملوك غرناطة ((لا غالب إلا الله))، وفوقها بخط باهت يوجد كتابات عربية وسطر بالأسبانية بأسلوب المخطوطات لا يظهر منها إلا القليل من الكلمات ولا يمكن فهمها، أما على يمين ويسار صفحة الغلاف نجد صورة شخص

عربي يرتدي خوذة ذهبية تظهر عليه ملامح المُلك، ويرجح أنّه رسم تخييلي للمعتمد بن عباد، وعلى اليسار صورة قبر المعتمد الموجود في قرية أغمات في المغرب، وقد نُقش على شاهد القبر أبيات من شعره، أما أسفل الغلاف فنجد رسما للوحة معركة الزلاقة، وذلك لأنها تصور معركة بين القشتاليين والعرب الظاهرين بالزي المغربي أثناء اقتحام القشتال معسكر المرابطين في أول المعركة، ويُلاحظ وجود الجمال في الرسم، وهذا الأمر واحدٌ من أهم الدلائل على كون هذا الرسم يدل على معركة الزلاقة.

أما الصفحة الخلفية للغلاف فيظهر فيها خمسة اقتباسات من الرواية، وبعدها أبيات مشهورة للمعتمد بن عبّاد في منفاه في أغمات يصف فيها حاله وحال أسرته بعد انقلاب أحوالهم.

ومن خلال هذا العرض لمحتويات صفحة الغلاف يجد المتأمل فيها أنّها مليئة بالتناقضات المقصودة، فهي تضعنا أمام ثنائية الصعود والسقوط، فهذه الخلفية تُظهر رسما لقصر الحكم في إشبيلية، وما فيه من أبهة وجمال، ويظهر تمثال الأسد واضحا للدلالة على السطوة والحكم والشراسة، وتظهر صورة متخيلة للمعتمد مرتديًا خوذة حربية مذهبة ومزخرفة، أما في المقابل نجد صورة قبر المعتمد في أغمات ولوحةً تصور اقتحام القشتال لمعسكر المسلمين في أول معركة الزلاقة ووصولهم إلى خيمةٍ قبتها حمراء هي خيمة المعتمد، ولا ننسى حضور الكتابات العربية والأسبانية اللتان تشكلان رمزًا للصراع بين ثقافتين وأمتين على مدى أكثر من ثمانية قرون.

إنّ هذه الثنائية الضدية البارزة بوضوح في الغلاف تعكس مآل دولة بني العباد من الصعود إلى السقوط فبعد أن كان مسكن المعتمد قصرًا فارهًا في إشبيلية، أوى إلى قبره في قرية نائيةٍ في المغرب، وبعد أن كان قائدًا لأقوى جيشٍ في الأندلس تفكك جيشه وسقط معسكره بيد القشتال في أوّل معركة الزلاقة، وصار ملكا لدولةٍ بلا جيش، وآلت به الأمور أخيرًا سجينا في أغمات، لا وسيلة له ليعبر عن حالته إلا أبياتًا من الشعر يستعرض فيها حياته مقارنًا حاله بين الماضي الزاهي المتمثل بالملك والحكم والقوة وحاضره المتمثل بالسقوط والسجن.

إنّ الروائي في بنائه وتشكيله لعتباته النصية، استطاع أنّ يقدم علاماتٍ سيميائية مكثّفة ومختزلة لفكرة وموضوع الرّواية، فمن السّهل على القارئ بعد تمعنه في هذه العتبات النّصية أن يدخل عالم النّص الروائي محملا بأفكارٍ تمهيدية عن فحواه وفكرته، فمن الواضح أنّها رواية تاريخية، تسرد أحداث سقوط دولة بني العباد، ويمكننا القول أنّ التركيب الإضافي ((خريف إشبيلية)) ودلالة لفظة خريف منفردةً شكلا رمزيةً على مفهوم السقوط، وتسرّب تأثير هذه الرمزية إلى صفحة الغلاف المزدحمة بالصور والأشكال والعبارات، التي لعل أبرزها وأكثرها وضوحا شعار بني الأحمر ((لا غالب إلا الله))، الذي جاء توظيفه هنا مثيرًا للتساؤل إذ إنّ زمن

الرّواية يسبق زمن تلك الدولة وشعارها، إلا أنّ هاتين الدولتين (العبادية و بني الأحمر) اشتركتا بمفهوم السقوط بعد الصعود والخريف بعد الازدهار، فنهاية كل دولة على شاكلة إشبيلية وغرناطة السقوط والانحلال.

(2-1): رمز الخريف وسقوط الحضارة إشبيلية نموذجا:

اشتبكت العتبات النّصية بشكل مباشر مع موضوع النص الروائي، وقد أشارت بوضوح إلى نوعه المتمثل بالرواية التاريخية، والملاحظ أيضًا أنّ الروائي أكسبَ روايته صفة الاستعجال بالسّرد، إذ تخلى عن بعض العتبات النصية الأخرى، مثل العنوانات الدّاخلية، والإهداء، وغيرها وآثر البدء بالسرد عليها.

ولعل هذا الاستعجال لم يكن من فراغ فهو يتناسق مع حالة الاستعجال التي قامت فيها دولة بني العبّاد في إشبيلية، إحدى أهم المدن والقواعد الإسلامية في الأندلس بعد أن سقطت الدولة الأموية، وانفرط عقد الوحدة إلى دويلات وصل عددها إلى اثنتين وعشرين دولة، إذ تسابق وجهاء كل مدينة للحصول على الرئاسة والحكم، فكان نصيب بنو العباد أن نالوا إشبيلية وأنشأوا فيها دولتهم.

والمتأمل لأحداث هذه الرواية يجد أنّها تنقسم في سياقها إلى قسمين الأول فترة الصعود، وتحول إشبيلية إلى مركز الحكم والسلطة، والقسم الثاني يركز على مرحلة السقوط، وانهيار الحضارة فيها وتحولها إلى مجرد ولاية ثانوية يحكمها أحد قادة المرابطين، وسنحاول في هذا المبحث تتبع حال المدينة في الفترتين اللتين سبق ذكرهما.

إنّ الفترة الأولى التي شهدتها إشبيلية بدأت منذ لحظة انفراط عقد الدولة الأموية فيها، فقد نشأت فاقدةً لشرعيتها إذ لا ولي أمرٍ لها، بل مجلس شورى من وجهاء إشبيلية على رأسهم قاضيها أبو القاسم محمد بن عبّاد، لكن ما لبث الأمر فيها إلا أن تحولت إلى مملكة تنظم جيشًا وتخرج بدعوة لتوحيد الأندلس تحت رايتها، وأستند حاكمها أبو القاسم محمد بن عباد- الذي انتدبه أشراف إشبيلية لحكمها مؤقتا- على دعوة بظهور شبيهٍ للخليفة هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الأموي، ودخوله قصر الإمارة في إشبيلية في حماية بني العباد، وقد تعرف عليه الشيوخ الكبار الذين عاصروه وجواريه وبعض خدم القصر، إذ كان الشبه بينهما كبيرًا، وأعلن أنّ بني العباد صاروا حجّابًا له وأصحاب دولته ووزراءه ونوابه، كما في نرى في السرد الآتي:

"أعلن آل عباد عثورهم على الخليفة المظلوم هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر، وأنّه كان متخفيًا مخافة القتل في تلك الفتن الدهماء، ودعوا الناس إلى بيعته فأقبلوا على ذلك زرافات ووحدانا، ثم أخرجوه في موكب عظيم يحف به آل عباد والأعيان والحرس في عرضٍ احتفالي لم تشهد إشبيلية له مثيلا، وقد صحّ قول عباد إن العامة تصدق ما ترغب في تصديقه، وأي مطلب عندهم أعظم من أن يسترجعوا خليفتهم ابن الخلائف، سليل الدوحة الأموية العظيمة، ومعه رسوم الخلافة وشعارها؟

في قلعة رباح، أقبل أحد الرجال راكضًا في السوق وهو يصيح لاهثًا:

-لن تصدقوا هذا...خلف... خلف الحصري...

انطلق الحضور بالضحك وقد ظنوه مازحًا...

-لا، لا. ما هو بمزاح... أعمى الله بصري وقطع لساني وفجعني في ولدي إن كنت مازحا أو كاذبًا... بلى ورب الكعبة ... هو هشام المؤيد بالله بن الحكم كان مستخفيًا بيننا على هيئته" (8)

وبهذه الدعوة الكاذبة استطاع أبو القاسم تثبيت أركان دولته على أرضيةٍ هشّة في إشبيلية فقط، وبقيت هذه الدعوة مصدرا لشرعية حكم آل عباد وسببًا في قيام مملكتهم، التي ما إن استقرّ حكمهم فيها، حتى تحول الحكم إلى المعتضد بن أبي القاسم المشهور بعنفه وبطشه، فأعدم الشبيه، ورسّخ أركان دولته بالخوف والظلم، وإقصاء أشراف إشبيلية الذين شاركوا والده في مجلس الحكم.

وأثناء حكم المعتضد حاول الأخير أن يوسّع مملكته، وأن يوحّد الأندلس تحت حكم إشبيلية، إلا أنّه كان يصطدم بجيرانه من ملوك الطوائف الذين كانوا يماثلونه في القوة، فكان يحاول التوسع بالطرق العسكرية أو بالحيل والخداع، فكان في حالة تذبذب في الاتساع أو الانحسار، إلى أن تحول الحكم لولده المعتمد الذي شهدت دولته أقصى درجات اتساعها، إذ استطاع ضم قرطبة وبلنسية ومرسية وقرمونة وغيرها من إمارات ومدن أندلسية، وساهم في صد المدّ القشتالي على بلاد الأندلس، فكان حكم المعتمد نقطة ذروة صعود إشبيلية انطلاقا من المفهوم الحضاري لصعود الدول المتمثل بهزيمة العدو الخارجي، وتوسع أراضي الدولة، والتحالف مع حليفٍ قوي.

وفي موضعٍ آخر:

"منذ زمن، لم تجتمع العائلة كلها على مناسبةٍ سعيدة تضجّ بالفرح والمرح والبهجة كما الآن، كيف لا وقد عاد المعتمد من حربٍ ضروس لم تشهد مثلها الأندلس من قبل، سالمًا غانمًا منتصرًا محمودًا راضيًا مرضيًا، فكان أهل بيته جميعًا فخورين به وببلائه، ولعله هو أكثرهم اعتزازًا وفخرًا" (9)

لكن هذا الصعود أعقبه سقوط أسرع من المتوقع، فمن المفترض أن تترسخ أركان دولة المعتمد بعد الانتصار على العدو الخارجي الأول المتمثل بجيش قشتالة في معركة الزلاقة، إلا أنّ حليفه انقلب عليه وسلبه ملكه في الوقت الذي كانت قوته العسكرية والمالية قد تبددت، وانهارت شرعية ملكه التي تأسست على دعوة توحيد الأندلس تحت رايةٍ واحدة، إذ ظهر كيان ينطلق من نفس الدعوة، لكنه تميز عنه بالقوة العسكرية والحسم السريع، فكان عاقبة الأمر سقوط إشبيلية وخريف الحضارة، إذ لم تقتصر فكرة السقوط ومدلول الخريف على أسرة المعتمد، بل تعداه إلى باقي مناحي الحياة والحضارة في إشبيلية والأندلس كلها، ومثال ذلك ما جرى على قصر غرناطة بعد سقوطه بيد المرابطين، كما نرى في السرد الآتي:

"حين جلسا إليه في مقره في دار الحكم، وقد أزيل منه الأثاث الفاخر، وفُرش بالبسط الصوفية، فلم يجدا من الرجل إقبالا وحرارة في اللقاء..." (10).

لقد عرض السارد في هذا الوصف المختصر تحوّل قصر الإمارة الفاره الذي كان يعجّ بالشعراء والأدباء ومجالس الأدب، ومركزًا جماليا يوضع فيه أنواع الأثاث الفاخر والتماثيل الحجرية، إلى مجرد قصرٍ خالٍ من الأثاث والأدوات باستثناء الحصير على الأرض، إذ حاول المرابطون تحوير حضارة الأندلس وصبغها بالطابع المغربي، وبأسلوبهم ونمط حياتهم الذي اعتادوه في الزهد والتقشف في بيئتهم الصحراوية التي جاءوا منها، حتى صار القصر مثالا واضحًا على خريف الحضارة، فبعد أن كان مركزًا للحكم والدولة، ومحل التقاء الشعراء والأدباء تحول إلى مجرد بناءٍ فارغ يعكس تشوه حالة الأندلس، التي أراد المرابطون تغييرها إلى صورة لا تصلح لها.

ونجد أنّ السارد يتطرق للإشارة إلى مآل إشبيلية بعد سقوطها بيد المرابطين، وما جرى عليها من تحول في نسقها كما نرى ذلك في الحوار بين المعتمد وخادمه إبراهيم، الذي تبعه إلى منفاه في أغمات:

" ومرت هنيهة صمت، قبل أن يسأل المعتمد:

-كيف خلّفت إشبيلية والأندلس من ورائك؟

أجاب إبراهيم:

-ليس البلد الذي كنا نألفه يا سيدي... وقد بدأ الناس يتذمرون... وكثيرٌ منهم يترحم على عهدكم ويقول: سقى الله تلك الأيام.

قال المعتمد:

-تعني بدأوا يضيقون ذرعًا بالمرابطين؟

-قد كرهوا جفوتهم وغلظتهم ... ليسوا جميعًا على مذهب صاحبهم ابن تاشفين، قد أحدثوا من بعده، وقد أوكل أمر الأندلس لسير بن أبي بكر وأصحابه، وهم بعيدون عن عينه، وإن الكثرة المتأخرة لا تبقى على قلب القلة المتقدمة، وقد بدا الطمع من كثيرٍ منهم، بعد أن ذاقوا حلاوة الأندلس، فصاروا يزاحمون النّاس في دورهم وضياعهم" [11]

إنّ المتأمل في الحوار السابق بين المعتمد وخادمه إبراهيم يجد انقلابًا جذريًا في حالة إشبيلية على الصعيد الحضاري، فبعد أن كانت مركزًا حضاريًا، وعاصمةً لأكبر ممالك الأندلس، تحولت إلى ما يشبه الغنيمة بيد المرابطين، الذين أخذوا يستحوذون على خيراتها، ويزاحمون أهلها فيها حتى صارت مدينةً طاردةً للسكان، وبذلك يصح القول أنّ إشبيلية مرّت بربيعٍ حضاري في عهد المعتمد الذي جعلها عاصمةً لأكبر دولةٍ في الأندلس، واستقطب فيها أبرز الشعراء الذي كان هو منهم، بالإضافة إلى ابن زيدون، وابن عمار، وزوجه اعتماد، فتحولت إشبيلية إلى عاصمةٍ للشعر والثّقافة في عهده، فضلا عن كونها عاصمةً سياسية، إلى أن دخلت إشبيلية حتى يومنا هذا بخريف طويل منذ سقوطها بيد المرابطين، ولاحقا بيد القشتال الذين سيطمسون ما تركه المرابطون دون طمس من أرثٍ عربي وإسلامي، وشواهد دالة على حضارةٍ بقي منها أرثها الشعري وتاريخها المتمثل بتاريخ دولة آل عباد.

المبحث الثاني: رمز الخريف وإسقاطاتها على الشخصيات:

تعد الشخصية الروائية عنصرًا محوريًا مهمًا في تشكيل النص الروائي، فهي المحرك الرئيسي للأحداث، ومدار موضوع الرواية، والوسيلة التي يعبر من خلالها الكاتب عن توجهاته وأفكاره؛ لذلك يكمن نجاح الرواية بقدرة الروائي على بنائها، وكفاءته في تقديمها[12]، فبعض الروائيين "يحرص على إبراز شخصياته بأدق تفاصيلها، فيُسهِب في وصف طبائعها وتعيين ملامحها ومظهرها وحركاتها، ويقدمونها جاهزةً للمتلقي، وهناك من يترك المجال للشخصية لتكشف عن ذاتها بذاتها، وما يجول بداخلها وما يعتري نوازعها، فتعبر عن نفسها بنفسها وعن مكوناتها المختلفة"[13].

ولم تعد الرواية الحديثة تميل إلى الوصف المباشر، بل نجدها تميل إلى أساليب غير مباشرة في بنائها وتقديمها، كما هو الحال في رواية خريف إشبيلية التي نتناولها في الدرس والتحليل، إذ سعى السارد إلى توظيف شخصيات تاريخية ودينية وقيادية مهمة، عاشت في زمن ملوك الطوائف؛ وذلك لحاجة السرد الروائي إليها؛ لأنها تُسهم في تحريك الأحداث وتمنح السارد معطيات وأفكارًا تضفي على العمل الإبداعي طاقاتٍ تعبيرية لا حدود لها[14]، فلجوء السارد إلى استحضار هذه الشخصيات ليس فقط بسبب سلطة المرجع التاريخي، فهو قادر من خلال سرده المتخيل على

ابتكار شخوصٍ خيالية، لكنه يستدعي بعض الشخصيات التراثية لوعيه بغنى هذا التراث وشخصياته[15]؛ لإضفاء صفة الواقعية على سرده، فالسارد يحمل في طيات روايته رسالةً إنسانية تتمثل بثنائية الصعود والسقوط وخريف الدول، تلك الدول التي تتنازع فيما بينها، ويحاول كل حاكم أن يسيطر على مُلك الآخر، وبالتالي عندما يستحضر السارد في سرده شخصياتٍ تاريخية، ويعيد تشكيلها موائما بين سلطتي المرجع والسرد، فإنه يضفي على فكرته نوعًا من الصدق الفني، وتصبح رسالته الفنية أكثر نضجًا وإقناعا.

والمتأمل في هذه الرواية يجد أنها استدعت عددًا من الشخصيات التاريخية المنتمية لزمن ملوك الطوائف، إلا أننا سنركز على الشخصية الرئيسة التي تأثرت برمزية الخريف، وانقلب حالها من الصعود إلى القمة إلى السقوط.

المطلب الأول: المعتمد بن عبّاد(ت488هـ):

عرفه الذهبي وذُكرت ترجمته في كتاب سير أعلام النبلاء بأنه "صَاحِبُ الأَنْدَلُس، المُعْتَمِدُ عَلَى اللهِ أَبُو القَاسِمِ مُحَمَّدُ ابنُ الملكِ المُعْتَضِدِ بِاللهِ أَبِي عَمْرٍو عَبَّادِ ابْن الظَّافر بِاللهِ أَبِي القَاسِمِ، قَاضِي إِشبيليَة، ثُمَّ مَلِكُهَا، مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيْلَ بن قُرَيْش اللَّخْمِيّ. قِيْلَ :هُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ النُّعْمَان بن المُنْذِرِ صَاحِبِ الحِيرَة، حكم المُعْتَمِدُ عَلَى المدينَتينِ قُرْطُبَة وَإِشبيليَة، وَأَصلُهُم مِنَ الشَّام مِنْ بَلَدِ العَرِيشِ [16].

تعد شخصية المعتمد شخصية مرجعية لكونها ذات مرجع تاريخي مثبت، سُرِد فيه سيرتها وأحوالها وشيئا من تفاصيل حياتها[17]، وهذا الأمر ينطبق على رواية خريف إشبيلية، التي تمحورت حول شخصية المعتمد، التي حرص السارد على بنائها بصورة تدريجية، وتقديمها للقارئ بصورةٍ مفصلة، مستفيدا من المرجعيات التاريخية ومجمل الأحداث المهمة التي ساهمت في تكوينها، وفي الوقت نفسه نراه يبتكر أحداثًا وشخوصًا خيالية من بنات أفكاره؛ ليجعلها -من خلال سرده الروائي- موهمة بحقائق واقعية مرَّ بها المعتمد وعايشها، وساهمت في تغيير حاله من حاكم للأندلس إلى أسير في قرية منسية، فالسارد كان يشتغل بشكل واضح على لعبة **التخييل**، وذلك بتقليصه للحدود بين الواقعي والمتخيل في أحداث حياة هذه الشخصية، عبر الخلط بينهما أو الإيهام بحقيقة المتخيل وخيالية الواقعي[18].

ولا شك في أن السارد، من خلال هذه المراوحة بين الواقعي والمتخيل، كان يرمي إلى سرد حياة هذه الشخصية المستهدفة بصور مختلفة؛ حتى تتناسب مع سلطة السرد، وليعبّر من خلالها عن أفكاره ورؤاه تجاه شخصية أو قضية ما من القضايا التاريخية المرتبطة بها، وفي هذا السياق لابد

من الإشارة إلى أن توظيف هذه الشخصيات يجب أن يكون على نحو احترازي، يحافظ فيه السارد على الملامح العامة للشخصية، مع اعطائها بعدًا خاصًا بعيدًا عن مرجعيتها التاريخية حتى تكون صالحة للسرد الروائي المتخيل[19]، والسارد في سرده الروائي لم يهدف إلى إعادة عرض سيرة الشخصيات التاريخية المُستدخلة في رواياته، وإنَّما سعى للتعبير عن رؤيته وفهمه لها في نسق روائي جديد، يستمد أسسه من سلطة المرجع التاريخي، ويقوم في بنائه على سلطة السارد، محققًا مفهوم الوهم المرجعي الذي يتمثل بدفع الكاتب لتحديد بُعد تخيلي داخل النص نفسه، حتى تبدو فيه الشخصيات المتخيلة على أنَّها حقيقية[20]، ومثل هذا الصنيع لا يعد تزويرًا واحتيالًا على التاريخ ومرجعياته، وإنَّما هي عملية ملءٍ للفراغات والبياضات التاريخية المتروكة في كتب التراجم والسير، استنادًا إلى مخيال الكاتب ورؤيته تجاهها؛ لتخرج هذه الشخصيات للقارئ بصورة ربما تكون مختلفة عمَّا كان يتوقعه أو يعرفه عنها.

وقد سعى السارد في خطابه السردي للحديث عن شخصية المعتمد متتبعًا إياها من الصعود إلى السقوط، مركزًا في حديثه عنها على الجانب الداخلي، مبتعدًا عن وصفها وصفًا خارجيًا، فقد أشار إلى ميله إلى الرفق واللين على خلاف والده المعتضد الذي كان يحتفظ بجماجم خصومه في خزانته، ولعل هذا الميل جاء بعد قتل المعتضد لابنه إسماعيل الأخ الأكبر للمعتمد:

"دخل عليه ولده محمد، الذي سيكون منذ الساعة ولي العهد وهو يصيح بانفعال:

-كيف فعلت هذا يا أبتِ؟ أليس ولدك؟

أجاب المعتضد دون أن يرفّ له جفن:

-وكذلك كان ولد نوح عليه السلام، وقد قال الله فيه ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ**﴾.

فجأة غلبه النحيب دون توقف... فاستدار إليه أبوه المعتضد حتى صار عنده، وصفعه صفعةً شديدة... وصاح:

-ولد المعتضد ينتحب كالنساء! أفلا تكون بعزم أخيك وصبر حين واجه الموت كما يليق بأميرٍ من بني عباد؟[21]

إن تسليط الضوء على هذا الحدث التاريخي الجوهري في بدايات حياة المعتمد السياسية، كان له عميق الأثر في تكوين شخصيته النّافرة من أسلوب والده المتبع في الحكم، إذ رأى المعتمد كيف أنّ السلطة تدفع الابن للانقلاب على الأب، وكيف أنّ الأب استطاع ببرود قتل ولده البكر، وإقامة الحجة على قتله بالاستشهاد بالقرآن الكريم، الذي كان استشهادًا غير صحيح فقد قاس عصيان ابنه على ابن نوح عليه السلام الذي رفض طاعة والده فأغرق، إنّ هذا الحدث الذي صدم

المعتمد وجعله في حالة بكاءٍ وصل حدّ النحيب جعله يميل إلى الأسلوب اللين في تعامله السياسي، الأمر الذي سيخلق له نجاحاتٍ ومكاسب سياسية لم تتحصل لوالده، إذ رأى أنه من الأنسب تقرّب أهل إشبيلية، الذين نفروا من أسرته بسبب سياسة والده القائمة على العنف، بالإضافة إلى إقامة صداقة مع أحد أفضل السياسيين والشعراء المعروف بابن عمّار الذي نفاه والده المعتضد من قبل، هذه الصداقة التي آتت للمعتمد مكاسب كبيرة، إذ عُرف عن ابن عمار الذكاء والدهاء السياسي.

"لم يسع الملك محمد بن عباد أن ينتظر وصول ابن عمّار، ليجمع الشيوخ والأعيان والقضاة، فيخاطبهم في سياسته، فكان مما قال:

خلاصة القول إيها السادة أني سأمضي على سنة أخرى غير التي ألفتم، فأقدم العفو والمعروف وحسن الظن ولين الجانب، لا جرم إلا بالدليل القاطع، ومناطه عند القاضي...

وحين خرجوا، مال أبو بكر بن زيدون على والده وهمس له:

-ما في نفسك من كلامه؟

أجاب ابن زيدون:

-كله يوافق ما اختبرناه من طبيعته وخلقه، فلا عجب، وقد جمّل المعتضد كل ملك بعده"[22].

إنّ هذه البداية في حياة المعتمد السياسية ساهمت في تثبيت أركان دولته التي تأسست فيما مضى على الخوف من المعتضد، الذي حاول العديد من الأشراف ووجهاء إشبيلية الانقلاب عليه كما فعل ابنه البكر إسماعيل الذي أعدمه ولم يراعي فيه أنه ابنه، أما المعتمد فقد مال إلى الرفق واللين، واتجه نحو خارج حدوده يوسع دولته دون أن يبذل في ذلك الدماء الكثيرة، فكان ضمه لقرطبة ذروة الصعود لديه:

تعالى الهتاف للمعتمد ملك قرطبة الجديد، ودخل الجيش الإشبيلي قرطبة منتصرًا دون مقاومة، ودون أن تراق قطرة دمٍ واحدة.

فعلها ابن عمّار... فعلها وربّ الكعبة

صاح المعتمد وهو يلوّح بكتاب ابن عمار

-هذا يومٌ عظيم من أيام الأندلس، طلبه جدي أبو القاسم ولم يدركه... ثم طلبه أبي المعتضد ولم يدركه، وقضى الله أن يتحقق في عهدي... إنها قرطبة... توأم إشبيلية، وعاصمة الأندلس... وواسطة العقد..." [23].

لقد مثل ضمّ قرطبة إلى مملكة إشبيلية -وهي ذات الأهمية السياسية بوصفها عاصمة الخلافة الأموية الزائلة- ذروة انتصارات وصعود دولة المعتمد، فهو بسيطرته عليها صار في نظر العامة صاحب الشرعية في الأندلس، هذه الشرعية المستمدة من الموروث التاريخي الذي خلّفه عبد الرحمن الداخل صقر قريش، الذي جاء إلى الأندلس ووجدها دول وإمارات فعمد إلى توحيدها، وزاد الأمر شرعيةً بأنّ المعتمد لم يدخل في حربٍ ومواجهة مع جيش قرطبة، بل سيطر عليها دون إراقة الدم.

ومع ذلك لم تدم هذه الشرعية طويلا، وهذا الصعود السريع ماثله السقوط في السرعة، إذ كانت بداية خريف المعتمد بتحالفه مع القشتال في حصار غرناطة، وذلك رغبةً منه في التوسع وبناء دولة مماثلة للدولة الأموية السابقة:

"قال شيشيند:

-الوزير ابن عمار! ما جاء بك إلينا هنا وكنا عندكم قبل شهر؟

أجاب ابن عمار مبتسما بثقة:

-وما الذي يأتي بأهل الحكم غير عروض السياسة؟ وقد بلغني رد ابن زيري لك...

-بهذه السرعة؟

-لي طرقي... وكنت قد لحقت بكم إلى أحواز غرناطة منذ بضعة أيام، أنظر ما يفعل صاحب غرناطة... ولم يفاجئني ردّه. كم المبلغ الذي رفض أن يؤديه لكم؟ نعم عشرون ألف دينار... أنا أزيدكم خمسين ألفًا، غير الضريبة الراتبة التي نؤديها لكم.

وبالطبع، لم تكن تلك بادرة كرم محض، فليس في السياسة مثل ذلك، كما يعلم شيشند جيدًا، فسأل دون مواربة:

-وما يلزمنا في المقابل؟

أجاب ابن عمار:

-تطلقون أيدينا بالاستيلاء على غرناطة، وتعينوننا بجندكم.

-ولماذا نفعل لكم ذلك لقاء خمسين ألف دينار، إذا كنا نستطيع أخذها لأنفسنا... لو أردنا؟

-لا أظن أنّ الأسباب تخفى عليك، كونت سسناندو.

تعمد نطق الاسم على أصله القشتالي.

-تعني بعد المسافة بين بلادنا وغرناطة! وذلك لقاء خمسين ألف دينار فقط! وما تبلغ هذه نفقات الجيش والحصار الطويل؟ وقد يكون علينا ابتناء حصنٍ في فحص غرناطة.

-أعتقد أنكم ستجدون في نفائس غرناطة وذخائرها وخزائنها عوضًا عن ذلك كله، ألا ترى أيها الكونت... نحن نريد البلد... أما أموالها فلكم.

أطرق شيشند متفكرًا، ثم سأل:

-أهذا رأي مليككم؟

-فلنقل أنا ضمين لكم بذلك.

هز شيشند رأسه وقال:

-عليّ أن أراجع مليكي في الأمر.

بدا المعتمد مترددا في المضي بخطة ابن عمار الذي أخذ يزين له الأمر، فهذه غرناطة التي طلبها أبوه وجده وعجزا عنها، فإذا انضمت إلى إشبيلية وقرطبة في مملكة واحدة، كان ذلك أقرب شيء إلى ملك الخلفاء الغابرين من بني أمية... ذكره ابن عمار أنّ الفقهاء والعامة مازالوا منذ انفرطا عقد الأندلس يطالبون بغايةٍ واحدة: توحيد ممالك الأندلس"[24]

لقد كان هذا التحالف الذي عقده ابن عمار وزير المعتمد مفتتح سقوط حكم المعتمد، إذ انهارت دعوته القائلة بضرورة توحيد الأندلس؛ لمواجهة العدو الخارجي، واسترجاع مجد الأندلس القديم، فبدلا من توجيه جيشٍ لملاقاة ألفونسو السادس، ومعاونة ملك غرناطة ابن زيري الرافض دفع الجزية، تحالف مع القشتاليين وحاصر غرناطة، الأمر الذي خلق ضعفًا واضحًا في حكمه، وجعل أعداءه يتخذون هذا التحالف فرصةً لإعلان الثورات عليه، كان أولها اضطرابات في قرطبة انتهت بقتل ابن المعتمد سراج الدولة الذي كان واليًا عليها، ومن ثم بدأ وزيره ابن عمار بالتمرّد عليه، واستغلال حادثة مقتل ولده وهزيمته على أبواب غرناطة، فاستقل بمرسية بعد أن حازها باسم المعتمد، فبدلا من استكمال مشروعه في توحيد الأندلس صار لزاما عليه أن يسترجع ما فقد، وأن يطارد الثائرين عليه، حتى وجد الأخير نفسه أمام قوة قشتالة وملكها ألفونسو السادس، بعد أن أُستهلكت قوة وأموال إشبيلية فما كان له من خيار إلا أن يطلب النجدة من يوسف بن تاشفين، الذي عبر البحر من المغرب، وجعله مع جيشه في مقدمة الصدام مع القشتال، فخسر المعتمد ما تبقى لديه من قوة:

"قرر (ابن تاشفين) ألا يخلط عسكر المرابطين بعسكر الاندلس في فرق مشتركة، فإنّ عادات المرابطين في القتال غير عادتهم، فيخشى أن تضطرب الصفوف وتقع الفوضى، فجعل عسكر الأندلسيين في موقعٍ متقدم..."[25]

"لم يسع المعتمد وهو يصغي إلى خطة ابن تاشفين إلا أن يزداد إعجابًا... ولكن لماذا اختار أن يجعل الأندلسيين في في موقعٍ متقدم؟ ألا يخشى ألا يصمدوا للصدمة الأولى؟ تساءل المعتمد في نفسه" (26)

لقد كانت معركة الزلاقة سببًا في تثبيت أركان دولةٍ جديدةٍ صاعدة تتمثل بالمرابطين، الذين أثبتوا قدرتهم على صدّ العدو الخارجي وهزيمته، إلا أنّ مشاركة المعتمد في قتال القشتال، وما قدمه من بطولة في معركة الزلاقة تركت له نصيبًا من الشرعية أمام العامة والفقهاء من أهل إشبيلية، لكنه ارتكب نفس الخطأ الذي أفقده شرعيته وأوصله إلى حافة السقوط سابقا، إذ عاود التحالف مع القشتال خوفًا من المرابطين بعد أن أخذوا غرناطة من صاحبها لنفس السبب:

"كل ذلك كان يمكن أن يُعتذر له، ولكن الشيطان أطغاه في آخر لحظة، وتقدم خوفه على مُلكه من المرابطين على أي اعتبارٍ آخر، فعزم أن يكتب إلى ألفونسو في الوقت المناسب يستعين به إذا دعت الحاجة! فقط إذا دعت الحاجة. لا، لن يفرّط بملكه ومُلك آبائه مهما يكن الثمن! وقد تعلم من أبيه أنّه في السياسة والحرب ليس ثمة صديق دائم، ولا عدوٌ دائم" (27).

إنّ هذا الخطأ الذي ارتكبه المعتمد جعل يوسف بن تاشفين يحرك جيشه تجاه إشبيلية، التي وجد أهلها مناصرين له إلى درجة أنهم ساعدوا جيشه على ثقب السور وفتح الأبواب للمرابطين، فقد كرهوا المعتمد على تصرفه بتحالفه مع ألفونسو، ورغبوا بعودة وحدة الأندلس تحت حكم المرابطين القادرين على هزيمة القشتال، أما المعتمد فقد سقطت شرعيته لدى العامة والفقهاء، وتركوه يسقط أسيرًا مع عائلته:

"وما الحياة الآن إلا أن يُساق ذليلاً إلى المغرب في الأغلال، ليُلقى في مكانٍ مجهول؟ يستعجل فيه موته. فإن كان لا بد، فأولى به أن يموت هنا عزيزًا، وهو ما أوصى به أبناءه، وامتثل المأمون لوصيته. فهل يسعه غير الذي وسع والده؟

ولكن صبره على مدافعة المرابطين زاد الرعية نقمةً عليه، فهو لم يُبد بعض ذلك في مدافعة الرومي، بل استنصر به لولا أن اعترضهم المرابطون عند المدوّر، ودمروا كثرتهم... ولما بدأ المرابطون بثقب السور من موضعٍ معين، اندفعت أعداد من أهل إشبيلية إلى الموضع نفسه، ينقبون بالفؤوس من الجهة المقابلة في الداخل"(28).

وفي موضعٍ آخر:

"أمر عريفه إبراهيم أن يتوصل إلى المرابطين على عجل؛ ليعلمهم أنه يسلمهم نفسه وولده الرشيد إلى سير بن أبي بكر، ويضع السلاح مع حرسه وجنده، وقفت اعتماد وبناتها: بثينة وعبيدة

وعائشة على المنظرة ينتحبن وهن يرين سير ومن معه يوثقون المعتمد وولده... أُنزل المعتمد والرشيد في سجن القصر، الذي أنزل فيه المعتمد ابن عمار من قبلُ! فيا لتقاليب الدهر!"[29].

إنّ حياة المعتمد بن عباد السياسية كانت مرتبطةً ارتباطًا وثيقًا بسلطة المكان (إشبيلية)، هذه السلطة التي بلغت ذروتها، ثم أخذت تذبل وتتجه نحو السقوط مستعيرةً بذلك رمزية الخريف، تلك الرمزية المرتبطة بالذبول بسبب عامل الوقت، فالزمن يشكل عاملا تدميريًا للدول وللإنسان وللكون، فكل شيء له عمر ينتهي عند لحظة بدء خريفه، لكن ما يميز خريف إشبيلية أنه خريف دولة وملك وأسرةٍ حاكمة معًا، فحياة المعتمد السياسية لم تكن بمنأى عن حياته الأسرية، فهذا ابن زيري حاكم غرناطة لم يتعرض لذلك السقوط القاسي، الذي تعرض له المعتمد بن عباد وأسرته كما ظهر في السرد الروائي، فشخصية المعتمد كانت أكثر ارتباطًا بإشبيلية، فلذلك شمله الخريف في مختلف مناحي حياته، إذ نجد أنّ هذا الخريف يمتد على جميع أفراد أسرته الذكور، فيقتلون جميعًا، وبذلك انقطع نسله وامتداد اسمه وسلالته، أما زوجه وصديقه ابن عمار، فقد شملهما ربيع المعتمد وخريفه، فابن عمار انتقل من مجرد شاعر مغمور لا يملك ثمنا لإطعام دابته أو مقابلا يدفعه لمبيته أصبح في عهد المعتمد وزيرًا ثم حاكمًا، ثم سجينًا وقتيلا، وزوجه اعتماد لم تكن في حالٍ أفضل، إذ كانت جارية الرميك، ثم أصبحت أميرةً وزوجًا للمعتمد، ومن ثم ملكةً، وأخيرًا أسيرةً تموت في أغمات من القهر والذل، فكأنها شجرة أثمرت ثم أصابها الخريف فذهب ثمرها وبهاؤها.

7.الخاتمة:

خلصت هذه الدراسة الموسومة بـ" **رمزية الخريف وسقوط الحضارة في رواية خريف أشبيلية للروائي وليد سيف** " إلى عدد من النتائج والتوصيات، أهمها:

أولا: النتائج:

-إن رمزية الخريف في رواية "خريف إشبيلية" للروائي وليد سيف تمثل أداة فنية ودلالية أساسية لفهم ثنائية الصعود والسقوط في الحضارة الأندلسية، فقد أظهرت التحليلات أن الروائي اعتمد على العتبات النصية، خصوصًا العنوان والغلاف، لتعزيز دلالات الخريف بوصفه رمزًا للأفول والانكسار الحضاري.

-بينت الدراسة أنّ مدينة إشبيلية وشخصية المعتمد بن عباد شكّلا أنموذجًا لتجربة سقوط الحضارة، إذ جسدت الرواية عبر السرد التاريخي والأحداث الرمزية كيف تؤدي الانقسامات الداخلية والتشرذم السياسي إلى انهيار الدولة، مهما بلغت من قوة أو مجد.

- أظهرت الدراسة كذلك أن وليد سيف نجح في مزج المرجعية التاريخية بالتخييل الفني، بحيث غدت الرواية ليست مجرد سرد تاريخي، بل نصًا متوافرًا على أبعاد رمزية ودلالات فلسفية، تؤكد أن الخريف ليس مجرد فصل من فصول السنة، بل رمز شامل للأفول الحضاري والإنساني.

ثانيا: التوصيات:

في ضوء هذه النتائج، توصي الدراسة بالتأكيد على أن دراسة الرموز في النص الروائي التاريخي توفر أداة نقدية قوية لفهم العلاقة بين الإنسان والتاريخ، وتتيح قراءة أعمق للتجارب الحضارية عبر الأدب، كما يبرز دور الروائي متمثلا بمرآة تعكس التحولات التاريخية والاجتماعية بأسلوب فني غني ودال.

.

الهوامش:

1 ينظر: بلعابد، عبد الحق.(2008). عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص (ط.1)، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون، ص43-45.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص54-55.

3 قطوس، بسام.(2001): سيمياء العنوان(ط.1)، عمان، وزارة الثقافة الأردنية، ص37.

4 حسونة، محمد. (2015) النص الموازي وعالم النص دراسة سيميائية، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية)، مج(19)، ع(10)، ص8.

5 ينظر: عبيد، محمد. البياتي، سوسن. (2020). معمارية النص الروائي (ط1)، عمان، الآن ناشرون،ص13.

6 ينظر: معمارية النص الروائي، 86-88.

7 ابن منظور، جمال الدين. (د.ط): لسان العرب، بيروت، دار صادر، مج(5)، ص55.

8 سيف، وليد (2025): خريف إشبيلية (ط1)، عمان، دار الأهلية، ص38-39.

9 المصدر نفسه، ص553.

10 المصدر نفسه، ص576

11 المصدر نفسه، ص627.

12 ينظر: عبد المحسن، محمد.(2011): البنية السردية في رواية صبحي الفحماوي: حرمتان ومحرم (ط.1)، اللاذقية، دار الحوار،ص44.

13قيطون، خديجة(2012): سيميولوجية الشخصيات في رواية تواشيح الورد لمنى بشلم (2012)، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، ص41. وزعرب، عودة.(2006): غسان كنفاني: في جماليات السرد في الخطاب الروائي (ط.1)، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ص119

14 ينظر: زايد، علي.(1997): استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر(د.ط)، القاهرة،دار الفكر العربي، ص16.

15 ينظر: دباخ، سعيد. (2015): استدعاء الشخصيات التراثية في شعر حسين زيدان، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ص14.

16 الذهبي، شمس الدين. (1985): سير أعلام النبلاء(ط.1)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ج19، ص58، ودوزي، رينهارت (2012): ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام(1)، تر: كامل كيلاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ص14-17.

17 ينظر: ستار، ناهضة (2003): بنية السرد في القصص الصوفي: المكونات، والوظائف والتقنيات، د.ط، دمشق، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ص185-186.

18 ينظر: صيداوي، رفيف(2008): الرواية العربية بين الواقع والتخييل (ط.1)، بيروت. دار الفارابي، ص8-9.

19 ينظر: بنية السرد في القصص الصوفي: المكونات، والوظائف والتقنيات، ص185-186.

20 الرواية العربية بين الواقع والتخييل، ص11-12.

21 خريف إشبيلية، ص195

22 المصدر نفسه، ص277-278.

23 المصدر نفسه، ص312.

24 المصدر نفسه، ص356-359.

25 المصدر نفسه، ص537.

26 المصدر نفسه، ص535.

27 المصدر نفسه، ص578.

28 المصدر نفسه، ص595.

29 المصدر نفسه، ص600.

قائمة المصادر والمراجع

بلعابد، عبد الحق. (2008): عتبات جيرار جينيت من النص إلى المناص (ط.1)، لبنان، الدار العربية للعلوم ناشرون.

ثامري، علي (2025): تجليات الفصول ومتعلقاتها في شعر محمود درويش، حولية مجبة جامعة قالمة، الجزائر، مج 19، ع1.

حسونة، محمد. (2015): النص الموازي وعالم النص دراسة سيميائية، مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية)، مج(19)، ع(10).

دباخ، سعيد. (2015): استدعاء الشخصيات التراثية في شعر حسين زيدان، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر.

دوزي، رينهارت (2012): ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام(1)، تر: كامل كيلاني، القاهرة، مؤسسة هنداوي.

الذهبي، شمس الدين.(1985): سير أعلام النبلاء(ط.1)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، القاهرة، مؤسسة الرسالة.

زايد، علي.(1997): استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر(د.ط)، القاهرة، دار الفكر العربي.
زعرب، عودة.(2006): غسان كنفاني: في جماليات السرد في الخطاب الروائي (ط.1)، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع.
ستار، ن.(2003). بنية السرد في القصص الصوفي: المكونات، والوظائف والتقنيات(د.ط)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
سيف، وليد (2025): خريف إشبيلية (ط1)، عمان، دار الأهلية.
صيداوي، رفيف(2008): الرواية العربية بين الواقع والتخييل (ط.1)، بيروت. دار الفارابي.
عبد المحسن، محمد(2011): البنية السردية في رواية صبحي الفحماوي: حرمتان ومحرم (ط.1)، اللاذقية، دار الحوار.
عبيد، محمد. البياتي، سوسن. (2020). معمارية النص الروائي (ط1)، عمان، الآن ناشرون.
قطوس، بسام(2001): سيمياء العنوان(ط.1)، عمان، وزارة الثقافة الأردنية.
قيطون، خديجة(2012): سيميولوجية الشخصيات في رواية تواشيح الورد لمنى بشلم (2012)، رسالة ماجستير، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر.
ابن منظور، جمال الدين. (د.ط): لسان العرب، بيروت، دار صادر.
ستار، ناهضة (2003): بنية السرد في القصص الصوفي: المكونات، والوظائف والتقنيات دمشق ، د.ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب.
محمد، هندة (2024): الخريف ودلالاته في الشعر العربي، مجلة أفكار، وزارة الثقافة الأردنية، ع 421.
محمد، عبد الرحمن: الخريف والأدب روايات فلسفية وتأملات في الحياة ربطها الكتاب بفصل الخريف، صحيفة اليوم السابع،
2021، https://www.youm7.com/

References

Belaabed, A. (2008). *The Thresholds of Gérard Genette: From Text to Paratext* (1st ed.). Arab Scientific Publishers, Lebanon.

Thamri, Ali. (2025). ***Manifestations of the seasons and their related themes in the poetry of Mahmoud Darwish***. **Hawliyyat Majallat University of Guelma**, 19(1), Algeria.

Hassouna, M. (2015). *The Parallel Text and the World of the Text: A Semiotic Study*. Al-Aqsa University Journal (Humanities Series), 19(10).

Dabbakh, S. (2015). *The Invocation of Heritage Characters in the Poetry of Hussein Zidan*. Master's Thesis, Mohamed Khider University of Biskra, Algeria.

Dozy, Reinhart. (2012). *Kings of the Taifas and perspectives on the history of Islam* (Vol. 1; K. Kilani, Trans.). Cairo, Egypt: Hindawi Foundation.

Al-Dhahabi, Sh. (1985). *The Lives of Noble Figures* (Vol. 19, 1st ed., Edited by Shu'ayb al-Arna'ut). Al-Risalah Foundation, Cairo.

Zayed, A. (1997). *The Invocation of Heritage Characters in Contemporary Arabic Poetry* (n.d.). Arab Thought House, Cairo.

Zaarab, S. (2006). *Ghassan Kanafani: On the Aesthetics of Narrative in the Novelistic Discourse* (1st ed.). Majdalawi Publishing and Distribution, Amman.

Sattar, N. (2003). *The Structure of Narrative in Sufi Stories: Components, Functions, and Techniques* (n.d.). Arab Writers Union Publications, Damascus.

Saif, Walid (2025). *Autumn of Seville* (1st ed.). Al-Ahliyyah Publishing, Amman.

Saidawi, R. (2008). *The Arabic Novel between Reality and Fiction* (1st ed.). Al-Farabi Publishing, Beirut.

Abdelmohsen, M. (2011). *The Narrative Structure in Sobhi Al-Fahmawi's Novel: Two Wives and One Forbidden Man* (1st ed.). Al-Hiwar Publishing, Latakia.

Obeid, M., & Al-Bayati, S. (2020). *The Architecture of the Narrative Text* (1st ed.). Al-Aan Publishers, Amman.

Qattous, B. (2001). *The Semiotics of the Title* (1st ed.). Jordanian Ministry of Culture, Amman.

Qaytoun, Kh. (2012). *The Semiotics of Characters in the Novel "Tuwashih al-Ward" by Mouna Bshlam*. Master's Thesis, Larbi Ben M'hidi University, Oum El Bouaghi, Algeria.

Ibn Manzur, J. (n.d.). *Lisan al-Arab* (Vol. 5). Dar Sader, Beirut.

Mohammed, Hinda. (2024). ***Autumn and its significations in Arabic poetry***. **Afkar Magazine**, Ministry of Culture (Jordan), Issue 421.

Mohammed, Abdul Rahman. (2021). ***Autumn and literature: Philosophical novels and reflections on life as connected to the autumn season***. **Youm7 Newspaper**. https://www.youm7.com/

The Symbolism of Autumn and the Decline of Civilization in Khareef Ishbiliya by Walid Saif

Abstract

Objectives: This study investigates the symbolic function of autumn in Walid Saif **Khareef Ishbiliya**, considering it as both an artistic and semantic device for unveiling the dialectic of rise and decline within Andalusian civilization. Autumn is treated as a historical paradigm underscoring the inevitability of decay in the presence of fragmentation and disunity. The study also highlights the figure of al-Mu'tamid ibn 'Abbād as a representation of al-Andalus's transition from glory to collapse, in order to illustrate the manner in which the novelist projects seasonal symbolism onto the destinies of both individuals and societies.

Significance: This study seeks to uncover the aesthetic dimensions of the presence of the signification of autumn in the novelistic narrative and the textual thresholds (paratexts), in addition to its originality and novelty, as this novel has not previously been examined in scholarly research.

Methods: The research adopts an analytical framework grounded in semiotic methodology, focusing on textual thresholds as well as the symbolic structure of the title and the cover, and examining their semantic implications in relation to the concept of civilizational decline.

Results: The study concludes that Saif's novel offers a narrative model that interweaves historical reference with artistic imagination, thereby dramatizing a moment of civilizational downfall that transcends its historical context to emerge as a recurrent and universal human signifier.

Keywords: Autumn, Ishbiliya textual thresholds, al-Mu'tamid, character, narration